الفصل الثالث

تطور قصص الحب

تتابعت قصص الحب على مختلف العصور العربية واتخذت أشكلا وألوانا مختلفة، فلو رجعت إلى كتاب «تزيين الأسواق» مثلا لرأيته فيه أخباراً عن ألوان من العشق، فالباب الأول عقده «فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين»، والثانى فى «ذكر أحوال عشاق الجوارى والكواعب وذكر ما صدر لهم من العجائب»، والثالث فى «ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان». والرابع فى «ذكر ما سوى البشر وما لاقوا من العبر». وفى هذا الباب أورد أخباراً عن حب بين حمامتين، وبين غراب وخطافين، وبين كلب وملك من أقيال اليمن، وبين نخلتين كانت إحداهما تزهر وتسقط قبل الانعقاد، فرآها حاذق فعرف أنها عاشقة فدعا برصاص فصنع

شريطاً وربط منها إلى النخلة الأخرى فحسن ثمرها وقد قطع صاحب البستان الشريط فأسقط الزهر فأعاده فصلحت.

والمتتبع لتطور قصص الحب يستطيع أن يتحدث عن ذلك من نواح :

١ - ناحية يتتبع فيها الباحث حكاية معينة وينظرها فى مختلف المراجع ويراقب التطور والفروق بين هذه المراجع.

فمثلا حكاية الشاب الذى أدخل قصته على الخليفة وفيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يأمر جاريته فلانة أن تغنى ثلاثة أصوات ثم ينفذ فى ما شاء من حكمه، فعل » - هذه الحكاية قد ذكرت فى الزهرة وفى الموشى وفى تزيين الأسواق وفى العقد الفريد وفى مصارع العشاق وفى ذم الهوى وفى المستطرف.

ومن الممكن مراقبة الفروق بين صنيع كل كتاب. ولكننا نجدها فروقاً شكلية فهى اختلاف على اسم الخليفة الذى رفعت إليه القصة، فهو سليمان فى الزهرة وفى المحاسن والأضداد وفى الموشى. أو هو عبد الملك بن مروان فى ذم الهوى وفى تزيين الأسواق وفى مصارع العشاق. أو هو يزيد بن عبد الملك فى العقد الفريد وفى المستطرف. أو اختلاف فى الشعر الذى طلبه الشاب أو فى موطن الشاب : وهل هو من البصرة كما فى تزيين الأسواق أو هو من المدينة كما فى العقد الفريد. أو فروقاً يسيرة : كأن يذكر الجاحظ مقدمة يبين فيها أنه خرج مع محمد بن إبراهيم على حراقته، فزجت عوادة نفسها إلى

الماء، ثم تبعها غلام وزج بنفسه في إثرها وأدار الملاح الحراقة فإذا بهما معتنقان وميتان، فيستفظع ذلك محمد ويقول للجاحظ: «لتحدثني بحديث يسليني عن فعل هذين وإلا ألحقتك بهما». فيقص عليه خبر الشاب مع سليمان بن عبد الملك. أو يفصل صاحب التربين في أول هذه القصة فيذكر أن هذا الشاب اسمه ظريف بن نعيم، وكان بأعظم حالة من الجمال وأمكن رتبة من المال، وكان أبوه من أكابر تجار البصرة، ثم رحل الشاب يوماً إلى بغداد. وحضر يوماً الدكة، فرأى الجارية فأعجبته وساوم مولاها حتى أخذها وانطلق إلى منزله، فلما كان الليل جاءه صاحب شرطة الحجاج فأخذ منه الجارية ووجه بها إلى عبد الملك فتبعها الفتى إلى دمشق ثم كانت قصته السابقة. أو أن يذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد أن مغنية من المدينة وقعت في قلب يزيد فسألها إن كان لها أقارب بالمدينة ليكرمهم من أجلها، فأخبرته ألا أقارب لها، ولكن هناك ثلاثة نفر كانوا أصدقاء مولاتها وأنها تحب أن يناهم الخير، فكتب إلى عامله بالمدينة أن يسيرهم إليه، فلما وصلوا عنده سألهم حوائجهم فأما الاثنان فذكرا حوائجهما، وأما الثالث فبعد أن أخذ الأمان طلب ثلاثة أصوات من الجارية فشرب عليها ثلاثة أرطال.. إلخ.

وقد أتاح لنا ابن الجوزي في كتابه «ذم الهوى» فرصة جميلة للمقارنة، إذ ذكر ثلاث روايات لهذه القصة، رواية في عهد عبد الملك، والثانية في عهد سليمان والثالثة في عهد الرشيد. والفروق

ن هذه الروايات ضئيلة، فالرواية الأولى تنتهى بأن عبد الملك بعد
ـ رمى الفتى بنفسه سأل عنه فقالوا: «غريب لا يعرف إلا أنه منذ
ث ينادى فى الأسواق ويده على رأسه

غدا يكثر الواشون منا ومنكم وتزداد دارى عن داركم بعدا

والرواية الثانية تنتهى بأن سليمان قال بعد أن زج الفتى نفسه على دماغه «إنا لله وإنا إليه راجعون، أتراه توهم الجاهل أنى أخرج إليه جاريتى وأردها إلى ملكى، ياغلام خذ بيدها فانطلق بها إلى أهله... فلما انطلقوا بها نظرت إلى حفيرة فى دار سليمان قد أعدت للمطر فجذبت يديها من أيديهم وجعلت تقول:

من مات عشقاً فليمت هكذا لا خير فى عشق بلا موت

فزجت نفسها فى الحفيرة على دماغها فماتت». والرواية الثالثة تنتهى بأن الرشيد قال بعد أن ألقى الفتى بنفسه «عجل الفتى، ولو لم يعجل لوهبناها له».

وارجع أيضاً إلى قصة الشاب الذى ادعى السرقة أمام خالد بن عبدالله القسرى فإننا نجد الفروق يسيرة بين بعض هذه الكتب، كأن يكون الذى كشف الأمر هو أخو العاشق، أو يكون ابن عم الفتاة.. إلخ.

وقصة العاشق الذى افترس السبع معشوقته ذكرت فى كثير من الكتب العربية القديمة وكان هناك تقارب بين بعض الكتب، وتباعد بين البعض الآخر، فرواية ابن السراج وداود الأنطاكى تتقاربان،

وكذلك رواية الوشاء وابن الجوزى. وهناك تباعد إلى حد ما بين الروايتين الأوليين وبين الروايتين الأخريين فالأوليان تذكران خبر السبع أولا وتؤخران كشف حقيقة الأعرابى وحقيقة فتاته. أما الأخريان فتبدأان بذكر خبر ذلك الأعرابى مع ابنة عمه وبعد ذلك تذكران خبر السبع ومأساته، والأبشيهى فى كتابه «المستطرف» ما يضيف مأساة أخرى لم تذكر فى تلك الكتب السابقة وينسب الشعر الذى أوصى العاشق ضيفه بأن يكتبه على قبرهما إلى هاتف فيقول بعد أن ذكر دفن العاشقين فى قبر واحد «فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهى كالولهانة فقالت لى: هل رأيت شابا يرعى غنماً؟ فقلت لها: نعم. وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكى وأنا ألاطفها إلى أن أقبل الليل، ومازالت تبكى بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة، فقعدت نحوها فإذا هى مكبة على وجهها، وليس لها نفس يصعد ولا جارحة تتحرك، فحركتها فإذا هى ميتة فغسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها، وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشددت فرسى وصرفت الغنم وسقتها، فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهر فى مهلٍ ... والعيش يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر بالتصريف ألفتنا ... فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن

وقصة الأعرابى الظريف الذى أراد معاوية أن يستأثر بمعشوقته الحسناء فأبت - لو قارنت بين هذه القصة كما هى فى «مصارع

العشاق»، وبينها كما هي في «أخبار النساء» لوجدت الفروق بينهم تتلخص في أن القصة كما هي في الأخبار أكثر تشويقاً إلى حد ما منها كما هي في المصارع إذ قدم لها بوصف للأعرابي وصفاً مشوقاً جعل معاوية يقول لجلسائه «لم يخلق الله من احتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم.. ياغلام سر إليه واكشف عن حاله وقصته، فوالله لئن كان فقيرا لأغنيته... إلخ».

٢ - وناحية يتتبع فيها الباحث القصص المتشابهة ويراقب الفروق بينها.

فقصة عروة وعفراء، لها قصة مشابهة حدثت في العصر الجاهلي وهي قصة المرقش وأسماء، فبينهما تشابه في كثير من التفصيلات والأحداث وإن كان في قصة المرقش يرد موقف ليس له ما يشابهه في قصة عروة، وذلك أن المرقش حين علم حقيقة الأمر من غلامين يلعبان وأن القبر الذي كان يحج إليه لم يكن يضم إلا عظام كبش - حين علم ذلك دعا وليدة له وزوجها الذي كان عسيفاً له، وركبوا جميعاً في طلب المرادي، وفي الطريق مرض المرقش حتى كان لا يحمل إلا معروضاً، حتى نزلوا كهفاً بأسفل نجران، فسمع المرقش زوج الوليدة يقول لها «اتركيه فقد هلك سقماً وهلكنا معه ضرا وجوعاً» فجعلت الوليدة تبكي من ذلك. فصمم على رأيه حتى أذعنت له - فلما سمع المرقش ذلك كتب على مؤخرة الرحل أبياتاً من الشعر إلى أخويه أنس بن سعد وحرملة يخبرهما فيها بحقيقة

الأمر. وحين رجعت الوليدة وزوجها أخبرا القوم أن المرقش قد مات. ولكن حرملة قرأ الأبيات فدعاهما وخوفهما وأمرهما أن يصدقاه فلما علم منهما الحقيقة قتلهما وركب فى طلب أخيه، فلما وصل إلى الكهف عرف أن أخاه قد احتمل إلى منزل محبوبته.

وقصة قيس ولبنى لها قصة تشبهها وتنسب أيضا إلى العصر الجاهلى، وهى قصة عبد الله بن العجلان وصاحبته هند، وإن كانت قصة قيس قد ورد فى خلالها موقف ليس له ما يشبهه فى قصة ابن العجلان، وهو زواج قيس بعد أن طلق معشوقته خضوعاً لرغبة والديه، بأخرى تسمى «لبنى» على اسم محبوبته. وهناك قصة حدثت فى عهد ابن عباس تشبه هذه القصة فى كثير من التفصيلات وهى قصة عروة بن قيس بالتى ذكرت فى تزيين الأسواق. وفى ظنى أن الحادثة واحدة وهى أن رجلا أحب امرأة فتزوجها ثم تدخل أهله بالتفريق بينهما فنجحوا فى ذلك، وإن كانوا لم ينجحوا فى إطفاء لوعة الحب - الحادثة واحدة كان القوم يتسامرون بها فى المجلس ويختارون لها من الأسماء التى يخترعونها أو يختارونها من التاريخ فالعاشق قد يكون اسمه عبد الله، أو قد يكون اسمه قيساً، أو قد يكون اسمه عروة، وقد تكون هناك بذور تاريخية لهذه الحادثة، ولكن القوم نقلوها إلى مجال التفكه والمسامرة، فجعلوا يزيدون عليها بعض التفصيلات وبعض الأشياء المشوقة.

ومن الطريف أن نقارن بين القصة التى قصها طريح بن إسماعيل

الثقفى فى عصر الوليد بن يزيد وبين القصة التى قصها محمد بن صالح بن عبدالله بن الحسن فى عصر المتوكل وبينهما أكثر من مائة سنة وقد ذكرت القصتان فى كتاب «المحاسن والأضداد». فإن القصة الثانية تزيد على الأولى فى أن صاحب الأشتر بعد أن لبس ثياب جيداء ودخل الزوج وجعل يضربه ظنا منه أنها جيداء - بعد ذلك تذكر القصة الثانية أن أمها دخلت وجعلت تعاتب الرجل ظنا منها أنه ابنتها ثم قالت له: سأرسل إليك أختك تؤنسك وتبيت الليلة عندك، فجاءت أختها ونامت بجانبه فلما استمكن منها شد على فمها وأخبرها بالحقيقة وأنها أولى من ستر عليها ثم بات معها يتحدثان ويضحكان حتى برق النور. القصة الأولى تكتفى بتلك الآلام التى لقيها طريح، والقصة الثانية تكافئ صاحب الأشتر بتلك النهاية السعيدة. وقد ذكرت هذه القصة فى مصارع العشاق فى سلسلة من الرواة منها «حدثنا محمد بن صالح الحسنى حدثنى أبى عن نمير ابن قحيف الهلالى قال...». والروايتان فى المصارع وفى المحاسن تتشابهان إلى حد كبير حتى فى استعمال بعض التشبيهات، وليس بينهما فروق إلا فى ألفاظ قليلة. وقد ذكرت هذه القصة فى تزيين الأسواق، إلا أنها ختمت بنهاية حزينة لم تذكر فى مصارع العشاق «... قال ابن طاهر: فلم يقم بعدها بشير إلا دون شهر وجاءه شخص... فقال له وهو يتناول عنباً: أتتفكه وجيداء قد قضت الساعة؟ فلم يسمع منه إلا شهقة، وحرك فإذا هو ميت. فبلغ الخبر الجارية

فهتكت سترها وجزت شعرها وألقت نفسها فى بئر هناك فماتت».

وبغض النظر عن هذه النهاية فإننا نجد الفرق بين ابن السراج والأنطاكى ينحصر فى أن الأول يتوسع فى الأسلوب وذكر التشبيهات فى حين أن الثانى يميل إلى الاختصار. فمثلا يصف الأول بشراً فيقول: «وكان سيدًا حسن الوجه شديد القلب سخى النفس» والثانى لايصف بشرًا بشىء وبينما يقول الأول: «... وضرب بيده إلى مقدم البيت فاستخرج منه سوطاً مفتولا كمتن الثعبان المطوق» أو: «فاهتزت الجارية كما تهتز القصبة من الروع» أو: «... وكشفت عن ظهرى فإذا فيه ما غرس الله من ضربة إلى جانب أخرى كل ضربة تخرج الدم وحدها». بينما يقول الأول هذا مستعملا التشبيهات والصور وإذا بالثانى يقول: «ثم عمد إلى سوط مفتول» أو: «... فارتعدت ساعة» أو: «فلما رأى تأثير السوط وخروج الدم قال...».

وفى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها تدور حول رجل أحب امرأة أحبته وقامت بينهما عقبات والتمسا من صديق له أن يلبس ثياب المرأة وأن ينام مكانها حتى يخدع زوجها بذلك ففعل، ثم إن الزوج دخل على الرجل ظنا منه أنه امرأته ثم حدث ما أغضب الزوج فتناول السوط وجعل يضرب الرجل وهو يحسبه امرأته - فى ظنى أن الحادثة واحدة وأنها مادة طيبة للسمر ظل الناس يتفكهون بها فى مجلسهم أيام الوليد وأيام المتوكل وغيرهما، وأخذ الرواة يروونها

بتغييرات طفيفة وزيادات هينة.

ولعلنا نلاحظ من هذه الأمثلة أن التطور فى القصة الواحدة وبين القصص المتشابهة ضئيل، لا يعدو الاختلاف فى الأسماء أو زيادات فى بعض الروايات، بل إن التقارب وصل فى بعض الروايات إلى حد استعارة التشبيهات والألفاظ.

وربما كان السبب فى هذا أن الرواة لم يكونوا ينظرون إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة، ولم يكن فى وعيهم إنشاء قصة تتخذ من التاريخ مادة ولها بعد ذلك الحرية فى التأثير والوصف والإضافة؛ فكانت هذه القصص مختلطة عندهم بمفاهيم التاريخ وكانوا ينقلونها عن الأعراب وغيرهم وكأنهم ينقلون روايات تاريخية ينبغى أن يحرصوا فيها على الألفاظ والترتيب، بل على ذكر الأسانيد.

ومن الطريف أن سيرة «الأميرة ذات الهمة» التى لايشك أحد فى بعدها عن التاريخ، إذ أن رواتها قد أباحوا لأنفسهم الحرية فى التصرف والمبالغة وخلق الأحداث واختراع الشخصيات والجمع بين شخصيات متباعدة زمناً ومخالفة التاريخ فى الوقائع المعروفة - من الطريف أن جامع هذه السيرة - على الرغم مما ذكرت - كانت مفاهيم التاريخ مختلطة عنده بمفاهيم الحكايات الشعبية فوصف هذه السيرة على غلافها بأنها «أكبر تاريخ للعرب وخلفاء بنى أمية والخلفاء العباسيين.. جمعت هذه السيرة أخبار العرب وحروبهم وملك مصر والشام وبغداد وغيرها من بلاد الإسلام وبلاد الإفرنج وفيها من

الفتوحات ما يبهر العقول».

لم ينظر الرواة إلى هذه القصص نظرة أدبية خالصة. وكذلك النقاد لم ينظروا إليها نظرة جدية تقوم منها وتنير لها السبيل، فتركوها للعامة يحكونها فى مجلسهم ويتصرفون فيها تصرفاً فطريا.

* * *

٣ - وناحية يتتبع فيها الباحث تطور هذه القصص مع تطور ظروف العصر وتأثرها بالتيارات الثقافية والاجتماعية.

(أ) فحكايات الحب الحسية التى رويت حول ابن أبى ربيعة وغيره من شخصيات العصر الأموى، كانت حكايات من النوع الظريف التى لم تبتعد كثيراً عن الخلق العربى.

ولكن بعد هذا العصر وبعد أن أتى الاتصال بالأمم المجاورة ثمرته وبعد أن عرف العرب فلسفة مانى وإباحية مزدك - بعد هذا كثرت القصص الماجنة والحكايات المنحرفة والحب الشاذ. فمثلا بشار بن برد يروى عنه أبو الفرج فى الأغانى قصة ماجنة مع امرأة هويها تسمى «أمامة» فكادت له بالاتفاق مع زوجها.. وقد أنشد فى هذه القصة أبياتاً مكشوفة.

وشاعت قصص عشق الغلمان، وقد عقد داود الأنطاكى باباً لهذه القصص سماه «فى ذكر عشاق الغلمان وأحوال من عدل إلى الذكور عن النسوان وتفصيل ما جرى عليهم من تصاريف الزمان». وأورد كثيراً من هذه الحكايات، التى كان يبلغ العاشق فى بعضها درجة

الجنون والتوله، كأخبار مدرك مع صاحبه عمرو إذ توله فى حبه حتى اختلط عقله.

(ب) وقصص العشق العذرية كانت تدور فى العصور العربية الأولى (فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى) حول عشق فتى لفتاة عشقاً لا يشرك معها فيه غيرها.

ولكن بعد ذلك نجد قصصاً صوفية يتجاوز فيها العاشق حب البشر إلى حب الذات العليا حبا يملك عليه كل جوارحه ويصيبه بالتوله والجنون ويجعله ينشد الأشعار الغرامية فى محبوبه الذى لا يشرك فى حبه غيره.

وإننى أنفق أن يكون للحب الأفلاطونى أثر على الحب العذرى فى العصر الأموى وما قبله. ولكن يمكننا أن نتحدث - بعد ذلك العصر - عن تأثيرات أفلاطونية وأفلوطونية، فقد عرف العرب الكثير من آراء أفلاطون وأفلوطين، وأتيح لها الوقت الكافى لأن تفعل فعلها. وعلى هذا لا أبعد لو قلت إن الفكرة الجديدة التى قال بها بعض الصوفية من أن العشق العذرى وسيلة إلى العشق الإلهى أو كما يقول بعض العارفين: «كما أن النساء حبائل الشيطان فهن حبائل العرفان، إذ قد يتوصل العاشق من عشقهن إلى معرفة مبدعهن، لأن المقدمات الصريحة تنتج الأغراض الصحيحة. وبالحرى من أمعن النظر فى مخلوق زائل ترقى عند معرفة غايته إلى دائم فاعل». لا أبعد لو قلت إن هذه الفكرة متأثرة بما طرأ على المجتمع

من آراء فلسفية[1].

وارتبط بين العشق العذرى وبين أمور دينية كان موجوداً فى بعض الأذهان منذ العصر الأموى. فقد عشق رجل من ولد سعيد ابن العاص جارية مغنية فابتاعها له عمر بن عبد العزيز وأهداها إليه، فمكثت عنده سنة ثم ماتت، فبقى مولاها شهراً أو أقل ثم مات كمداً عليها فقال أبو السائب المخزومى: حمزة سيد الشهداء وهذا سيد العشاق فامضوا بنا حتى ننحر على قبره سبعين نحرة كما كبر النبى صلى الله عليه وسلم على قبر حمزة سبعين تكبيرة. وبلغ أبا حازم الخبر فقال: أما من محب فى الله يبلغ هذا ولى[2]. وقيس كانت تشغله ليلى عن تبين القبلة وكان يضفى عليها شيئاً من التقديس والتبجيل فيقول:

أرانى إذا صليت يممت نحوها بوجهى، وإن كان المصلى ورائيا

وقد اهتم الصوفية بالعشاق العذريين، فكان الشبلى يضرب لسامعيه المثل بالمجنون فيقول: «ياقوم هذا مجنون بنى عامر كان إذا

---

(١) انظر لهذا الموضوع:

١ - مائدة أفلاطون ص ٢٦٠.

٢ - الغزل فى العصر الجاهلى للدكتور أحمد المحوفى ص ١٣١ من الطبعة الثانية.

٣ - الحياة العاطفية للدكتور محمد غنيمى هلال ص ٢١٤.

(٢) انظر: مصارع العشاق ص ٥٦.

سئل عن ليلى يقول أنا ليلى، فكان يغيب بليلى عن ليلى، فكيف يدعى من يدعى محبته وهو صحيح مميز». وكان ابن الفارض سلطان العاشقين يشبه حالته بحالة المحتضرين فيقول فى ديوانه:

بها قيس لبنى هام بل كل عاشق كمجنون ليلى أو كثير عزة
فكل صبا منهم إلى وصف لبسها بصورة حسن لاح فى حسن صورة

وقد عقد صاحب التزيين باباً «فيمن استشهد من المحبين شوقاً إلى حضرة رب العالمين». وقص فيه حكايات صوفية عن ابن المبارك، وعن أبى الفيض ذى النون المصرى، وعن أبى الفتح بن سحنون، وعن عتبة المعروف بالغلام... إلخ.

(ح) وكثير من العرب فى العصر الجاهلى وفى العصر الأموى كانوا يقدرون العاشق ويتعاطفون معه ويعتبرونه شخصية أرقى من غيرها. وانظر إلى أخى الفزارية كيف كان يرغب فى مصاهرة قيس بن ذريح ولما لامته العرب فى ذلك قال: «دعونى فى مثل هذا الفتى يرغب الكرام». واقرأ فى الأغانى كيف كان القوم يتحملون لأخبار المجنون ويتتبعونها ويتحملون من أجل ذلك المشاق والمتاعب. وكان القوم يعظمون تضحية العاشق فالرجل الذى انتحر لأن السبع أصاب معشوقته كبر فى أعين القوم وقالوا «والله لننحرن عليه تعظيماً له فخرجوا وأخرجوا مائة ناقة وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا فنحرت ثلثمائة ناقة». حتى الأزواج كانوا يقدرون هذه العاطفة، فيذكر جميل

أن الزوج لما بلغه خبر انتحار العاشق «تأسف وحزن حزناً شديداً لأنه لم يجمع بينهما فى حياتهما».

ولكنى أقرأ فى نصوص متأخرة ما يثبت أن هذه النظرة قد تغيرت عند كثير من الناس فأصبحوا ينظرون إلى العشاق نظرة سخرية ويعتبرونهم أشخاصاً مرضى قد أصابهم الخلل فى عقولهم والاضطراب فى أفكارهم. فكانوا يصفدونهم بالحديد ويضعونهم فى دار تسمى «دار المجانين». وتحت عنوان «فصل فيمن أنلخ به الحب ثقله حتى أذهب عقله» ذكر داود الأنطاكى قصصاً لعشاق أدخلهم قومهم بيمارستان ببغداد أو دير هرقل.

ويحكى المبرد قصته وقد خرج مع المأمون ثم دخل ديراً فيه مجانين مغلغلين وهم فى نهاية القذارة وبينهم شاب عليه بقية ثياب ناعمة فحياهم وجعل ينشدهم شعراً فى العشق ثم ختم شعره بهذا البيت:

إن على العهد لم أنقض مودتهم فليت شعرى لطول العهد مافعلوا

فأراد رجل كان مرافقاً للمبرد أن يسخر منه وأن يتهازح معه فقال له: ماتوا. قال الشاب: إذن فأموت. فتمطى واستند إلى السارية التى كان مشدوداً فيها. وجعل يضرب رأسه بها حتى مات.

وأشم فى بعض النصوص روح السخرية والاستهزاء بالمحبين، وبهذا الحب الغافل الذى هو أشبه بعشق البهائم «قال المتوكل لأبى العنبس الصيمرى: اخبرنى عن حمارك ووفاته وما كان من شعره فى الرؤيا التى رأيتها. قال: نعم ياأمير المؤمنين كان أعقل من القضاة

ولم يكن له جريمة ولا زلة فاعتل علة فمات منها، فرأيته فيما يرى النائم فقلت له : ياحارى ألم أبرد لك الماء وأنق لك الشعير وأحسن إليك جهدى فلم مت غفلة . . . ؟! قال : لما كان فى اليوم الذى وقفت على فلان الصيدلانى تكلمه فى كذا وكذا مرت بى أتان حسناء فرأيتها فأخذت بمحاسنها قلبى فعشقتها واشتد وجدى بها فمت أسفاً. فقلت له : ياحارى هل قلت فى ذلك شعراً؟ قال نعم. فأنشدنى :

هام قلبى بأتان عند باب الصيدلانى
تيمتنى يوم رحنا بثنايا الحمان
وبخد ذى دلال مثل خد الشنغرانى
فبها مت ولو عشت إذن طال هوانى

فقلت : ياحارى فما الشنغرانى؟ قال : هذا من غريب الحمير. فطرب المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنوا ذلك فى شعر الحمار وفرح فى ذلك اليوم فرحاً لم ير مثله».

فقد أصبح العشق فى هذا النص من طباع الحمير، وأصبحت فعالها مادة تثير الضحك وتبعث السرور ويجد فيها الملهون والمغنون مجالا للهو والغناء. ولأمر ما كان يكرر أبو العنبس قوله : ياحارى!.

وعلى أى حال فقصص الحب حين عبرت عن المجون والشذوذ، أو شفت عن الوجد الصوفى - لم تتطور من الناحية الأدبية عن قصص الظرفاء والعذريين. وكل الفرق الذى حدث أنه بدل الظرف

حل المجون وبدل العشق العذرى حل العشق الصوفى وبدل عشق الكرام ظهر عشق الحمير.

أما الناحية الأدبية فمازالت القصة فقيرة فيها بذور فنية جاءت بمحض المصادفة، ومازالت خبراً قصيراً سريعاً متناثراً فى بطون الكتب تختلط فيه الحقيقة بالوهم والتاريخ بالخيال، اختلاطاً لا يبين عن شخصية التاريخ المحققة ولا عن شخصية الخيال المنطلقة.

* * *

٤ - إنما أتيح لهذه القصص أن تنمو وأن تتوسع فى الأحداث وفى إثارة التشويق وفى جذب السامع وفى إضفاء الجو القصصى - حين استطاعت أن تتخلص من تلك النظرة التاريخية وأن تنتقل إلى مجال الأدب انتقالا واضحاً واعياً، وذلك حين.

(أ) انتقلت هذه القصص إلى **السير الشعبية**، إذ يبدو أنه قد أصبح واضحاً لدى رواة هذه السير أنهم يذكرون حكايات يراد منها التأثير والجذب ولا يراد منها التاريخ وحقائقه على الرغم من أن بعضهم قد حاول أن يصدر سيرته بما توهم أنها تاريخ للعرب ووقائعهم.

فمثلا قصة السارق الذى ادعى السرقة امام خالد بن عبدالله القسرى لينقذ معشوقته من الفضيحة قد كانت الفروق فيها بين الكتب العربية التى تختلط فيها القصة بالتاريخ - فروقاً لا تعدو الاختلاف على أشياء شكلية وكان الراوى يخشى أن يتوسع وأن يفصل

لأنه يخشى أن يخالف التاريخ وأن يثير الخاصة، ولكن حين انتقلت هذه القصة إلى «ألف ليلة وليلة» أضفى عليها جو قصصى وتوسع الراوى فى شرح أحداثها والتركيز على النقط المؤثرة ومحاولة جذب القارئ، فتبدأ القصة بوصف العاشق بأوصاف تجعل السامع يتعاطف معه فهو «ذو جمال باهر وأدب ظاهر وعقل وافر. وهو حسن الصورة وعليه سكينة ووقار» وبالفعل تعاطف خالد مع هذا الشاب حين قدم إليه على أنه لص ودار بينهما حوار حاول فيه أن يسبر أمر هذا الفتى، ثم دنا منه وسأله عن قصته فقال: إن القوم صادقون فيما قالوه والأمر على ما ذكروا. فقال له خالد: ما حملك على هذا وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة؟ قال: حملنى على ذلك الطمع فى الدنيا وقضاء الله سبحانه وتعالى. فقال له خالد: ثكلتك أمك، أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر يزجرك عن السرقة؟! قال: دع عنك هذا أيها الأمير وامض إلى ما أمر الله تعالى به، فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد. فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم أدناه وقال له: إن اعترافك على رءوس الأشهاد قد رابنى وأنا ما أظنك سارقاً ولعل لك قصة غير السرقة فأخبرنى بها. قال أيها الأمير لايقع فى نفسك شىء سوى ما اعترفت به عندك وليس لى قصة أشرحها إلا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت ما أمكننى». فأمر خالد بحبسه ووكل به قوماً يراقبونه ويتسمعون أخباره وإذا به يفضح نفسه، إذ أنه حين استقر فى الحبس

« تنفس الصعداء وأفاض العبرات وأنشد هذه الأبيات :

هددنى خالد بقطع يدى ... إذ لم أبح عنده بقصتها

فقلت هيهات أن أبوح بما ... تضمن القلب من محبتها

قطع يدى بالذى اعترفت به ... أهون للقلب من فضيحتها

وينقل الموكلون به ذلك إلى خالد فيأمر بإحضار ذلك الفتى الغريب الأطوار ويأكل معه ويتحادث محاولا أن يصل إلى حال اللغز ولكنه لا يستطيع. فلا يجد مناصاً من أن يعرض على الفتى بأن يكر السرقة أمام القاضى وأن يذكر من الشبهات ما يدرأ عنه حد القطع. وفى اليوم المحدد لعقوبة الفتى حضرت الناس. وهنا تصف القصة موقفاً مؤثراً « إذ لم يبق أحد فى البصرة من رجل ولا امرأة، إلا وقد حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى. وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم استدعى بالقضاة وأمر بإحضار الفتى. فأقبل يحجل فى قيوده ولم يره أحد من الناس إلا بكى عليه وارتفعت أصوات النساء بالنحيب فأمر القاضى بتسكيت النساء » ويتعاطف القاضى أيضاً مع هذا الفتى الجميل فيسأله أسئلة يحاول فيها أن يبرئ الفتى « .. قال له : إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم. لعلك سرقت دون النصاب ؟ قال : بل سرقت نصاباً كاملا. قال : لعلك شريك القوم فى شىء منه ؟ قال : بل هو جميعه لهم لا حق لى فيه. وهنا يثور خالد على هذا الفتى العجيب فيقوم إليه ويضربه على وجهه بالسوط. متمثلا بهذا البيت :

يـريد المرء أن يعـطى منـاه ويـأبى الله إلا مـا يـريد

ثم دعا بالجزار ليقطع يده. وهنا تحدث مفاجأة أذهلت القوم إذ بادرت جارية من وسط النساء عليها أطمار وسخة فصرخت ورمت بنفسها عليه ثم أسفرت عن وجه كأنه القمر وارتفع للناس ضجة عظيمة وكاد أن يقع بسبب ذلك فتنة طائرة الشرر، ثم نادت تلك الجارية بأعلى صوتها: ناشدتك الله أيها الأمير! لا تعجل بالقطع حتى تعرف حقيقة الأمر». وتكشف لخالد الغموض الذى أحاط بموقف الفتى وتنتهى القصة بزواجهما على يد خالد «قال الراوى: فما رأيت يوماً أعجب من ذلك اليوم أوله بكاء وشرور وآخره فرح وسرور».

هذه القصة - كما هى فى ألف ليلة وليلة - تتوسع فى نشر الأمور القصصية الجذابة، فهى تجعل القارئ يتعاطف مع العاشق الجميل الغريب الأطوار، وهى تحاول أن تثير الشوق. وانظر إلى صنيعها حين تقف بالقارئ عند نقطة مؤثرة لتفاجئه بأن الصباح قد فاجأ القاص، فمثلا حين يستدعى خالد الفتى من السجن ويعرض عليه أن ينكر السرقة حتى ينقذ نفسه من القطع. وهنا يتشوق القارئ إلى معرفة موقف هذا الشاب الغامض، ولكن الصباح يأتى فلا يكشف القاص عن موقف الفتى وإنما يفعل ذلك فى الليلة الثامنة والتسعين بعد المائتين.

وأظن أن جامع التحفة البهية قد نقل هذه القصة من «ألف ليلة وليلة» إذ أن قصته تشبه القصة كما وردت فى ألف ليلة وليلة:

فى بدايتها وفى تعليق الراوى على نهاية القصة وفى الشعر الذى ورد على لسان الفتى وهو فى حبسه، بل حتى فى استعمال الأسلوب المسجوع والكلمات وأية مقارنة تثبت هذا. موقف واحد فقط يتوسع فيه جامع التحفة ويذكر فيه أبياتاً لم تذكر فى ألف ليلة وليلة. وهو موقف الفتاة حين كشفت عن الغموض «فلما حضر الجلاد وأخرج السكين، بدرت جارية من صف النساء وعليها إزار وسخ وصرخت صرخة عظيمة ورمت نفسها عليه، وأسفرت عن وجه كأنه القمر إذا أبدر، والصبح إذا أسفر، بطرف كحيل وخد أسيل وثغر أفلج وحاجب أبلج وقد كالقضيب وردف كالكثيب... ثم نادت بأعلى صوتها: ناشدتك الله أيها الأمير، لا تعجل عليه حتى نقرأ هذه القصة ثم دفعت إليه رقعة ففضها خالد فإذا فيها مكتوب

أخالد هذا مستهام متيم ... رمته لحاظى عن قسىّ الحمالق
نأضناه سهم اللحظ منى فقلبه ... حليف هوى من دائه ند فائق
أقر بما لم يقترفه، لأنه ... رأى ذاك خيراً من فضيحة عاشق
فهلا عن الصب الكئيب لأنه ... كريم السجايا فى الهوى غير سارق
فأنت الذى لايرتجى اليوم غيره ... لدفع ملمات الخطوب الطوارق

ومثال آخر... فإننا نقرأ قصة مجنون ليلى فى كثير من الكتب العربية القديمة، فإذا بها قصة مهلهلة مكتظة بالأسانيد والحشو ليس فيها ترتيب. وإنما هى مجموعة من الأخبار ضم بعضها إلى بعض كيفما اتفق. وقد وصف الدكتور طه حسين فى الجزء الأول من

حديث الأربعاء، هذه القصة بأنها سخيفة متكلفة.

ولكن وقع فى يدى كتاب مكون من خمس وخمسين صفحة بحمل عنوان «قصة قيس بن الملوح العامرى المعروف بمجنون ليلى» ولم يعلم جامع هذا الكتاب. ولكنى أظن أنه ألف فى فترة متأخرة حين شاع تأليف السير الشعبية فإن أسلوبه يشبه أسلوب تلك السير فى استعمال السجع وفى المبالغة، وفى ترديد كلمة «قال الراوى». وفى الإتيان بأشعار سخيفة قريبة إلى الأشعار العامية السهلة مثل:

يامنيتى أنت مقصودى ومطلوبى وأنت رغما من الأعداء محبوبى
إن تحتجب عن عيون الصب ياأملى ماأنت من قلب المضنى بمحجوب

قصة قيس - كما جمعها مجهول - تعتبر أكثر نموا وأقرب إلى الناحية القصصية فهى قد مالت إلى الإفاضة والإطالة وشرح المواقف المؤثرة ومحاولة غرس العطف فى قلب القارئ على قيس المسكين، وبدت ذات ترتيب من بداية ونهاية، وتخلصت من النظرة التاريخية ومن العنعنات والأسانيد، بل كانت تذكر من الأسماء ما لم ترد فى كتب التاريخ والتى كانت موافقة لأسلوب السجع. أو تحرف من الأسماء التاريخية ما يناسب هذا الأسلوب مثل «وكان قد عشق جارية فى هذه الأيام يقال لها ليلى بنت مهدى بن عصام» ويذكر الأغانى نسب ليلى هذه فى الجزء الأول فيقول: «بنت مهدى بن سعد ابن مهدى بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة». ومثل «وكان من جملتهم رجل من بنى ثقيف يقال له

سعد بن النيف» والأغانى لا يذكر اسم هذا الزوج وإنما يكتفى بأنه رجل من بنى ثقيف موسر. ومثل «ومازال يجول من مكان إلى مكان حتى وصل إلى جبل يقال له ثوبان.. فأنشد وقال:

واجهشت للثوبان حين رأيته ... ونادى بأعلى صوته ودعاني
فقلت له: أين الذين عهدتهم ... حواليك فى خصب وطيب زمان
فقال: مضوا واستودعونى بلادهم ... ومن ذا الذى يبقى على الحدثان

والأغانى يذكر أن هذا الجبل اسمه ثوباد ويورد شعراً مثل هذا الشعر وإن كان يختلف عنه فى بعض الألفاظ. والقصة الشعبية نفسها تذكر هذا الاسم «ثوباد» فى موضع آخر حين تجد أنه يسعفها فى أسلوب السجع «فصار وهو منزعج الفؤاد حتى أقبل على جبل ثوباد».

وقصة قيس هذه جمعت أخبار المجنون وصاحبته المتناثرة فى الكتب العربية، جمعاً لا كصنيع الجامع لأخبار عروة بن حزام الذى يكاد لا يختلف عن الأغانى فى شىء فى تلك الصفحات الإحدى عشرة التى جمع فيها أخبار عروة. إذ أن الجامع لقصة قيس قد ظهرت شخصيته فى ترتيب هذه الأخبار وفى إضفاء الأسلوب القصصى عليها وفى ملء الفجوات بين هذه الأخبار وفى التوسع فى المواقف المؤثرة، وفى شرح مشاعر ليلى التى تحدثت عنها الأخبار العربية حديثاً مقتضباً، وفى التحدث عن مشاعر الزوج التى تجاهلتها الأخبار العربية وفى نثر الخطابات المؤثرة المتبادلة بين قيس وليلى وفى الاهتمام بالوصف، ولا تنسى أن تصف الطبيعة وترسم الجو كأن تقول: «إلى أن انتصف

ظلام الليل وعلا نجم سهيل». وهي في وصف الطبيعة لا تبالغ فتخرج عن وصف طبيعة صحراء نجد المقفرة إلا في حالات نادرة مثل حديث رجل من بني أسد التقى بالمجنون فيقول: «إلى أن توصلت إلى روضة كثيرة الأزهار والرياحين والأنوار فحدثتني نفسي أن أقيم فيها، وأتنزه في بعض نواحيها. فنزلت في أرجاء تلك الأزهار المونقة، والأنوار البديعة المورقة وأنخت ناقتي إلى قنوان شجرة صغيرة، وجلست برهة يسيرة. فبينا أنا أتأمل في تلك الروضة المرج الطويلة العريضة، إذ سقط رجل من الجراد كثيرة الأعداد، على ذلك الواد، فافترشت جنباتها وأرضها، وأخذت طولها وعرضها فتعجبت من تلك المناظر البهية والروائح الزكية... إلخ». فإن هذا الوصف أقرب إلى الطائف أو غوطة دمشق منه إلى صحراء نجد.

تبدأ هذه القصة فتذكر أنه كان في زمن عبد الملك بن مروان رجل يقال له الملوح بن حزام، كان له ثلاثة أولاد ذكور كأنهم البدور. منهم قيس «وكان أصغر إخوته عمراً وأعلاهم همة وقدراً، وأجودهم نظماً ونثراً...». وصاحبته ليلى «سمراء اللون قصيرة القامة فصيحة الكلام وعلى خدها الأيمن شامة». ولما شاع حبهما استعظم أبوها ذلك الأمر، وطارت من عينه شرار الجمر، ثم منعها الزيارة في الليل والنهار وحجبها عنه خوف الفضيحة والعار. وزاد الجوى بقلب قيس فجعل أهله ينصحونه ويعذلونه ولما لم يجدوا نفعاً تقدموا إلى أبيها خاطبين ليلى فأبى، فزاد الأمر بقيس وتوله وانطلق إلى

لخلوات». وهنا تصف القصة موقفه من صائد الظباء وصفاً مفصلا تبغى به التأثير على السامع. ويحج به أبوه إلى الكعبة ملتمساً العون من الله ولكن دون جدوى «إذ ترك أباه والحرم وقصد البرارى والأكم» وجعل أبوه يطمئنه ويقول له «فعد معى إلى بنى عامر وكن منشرح الصدر مطمئن الخاطر، وأنا أتلافى هذه القصة وأزوجك بليلى وأزيل عنك هذه الغصة» ومازال يحايله حتى رجع معه إلى الأوطان. أما ما كان من أمر ليلى فقد تحولت إلى شيء يتمناه الجميع ويجدون فى طلبه والفوز به، وكأنها المجد الذى يسعى الطامحون إلى التعلق به، أو مقام التجريد الذى يجد الصوفيون فى طلبه. ولنترك الراوى يشرح تأثير ليلى على قلوب الخلق «وأما ما كان من ليلى، فإنه قد شاع ذكرها بالآفاق، وتحدثت فيها الناس فى الحجاز وبلاد نجد والعراق، وتناشدوا ما قال قيس فيها من الأشعار الرقاق التى لم يسبقه إليها أحد من فحول الشعراء والعشاق. فكان كل واحد يود أن ينظرها ويتمنى أن يراها ويبصرها، فترادفت عليها الخطاب وكثرت عليها الطلاب ودخلوا على أبيها فى ذلك من كل باب» حتى وافق أبوها على أن يزوجها رجلا من بنى ثقيف. وهنا تصف القصة موقف ليلى إزاء هذا الزوج وصفاً واضحاً مفصلاً فتقول: «فلما سمعت ليلى من أبيها ذلك الخطاب، أظهرت الكدر والاكتئاب وعظم عليها ذلك الأمر، واكترى قلبها بلهيب الجمر. لأن هذا الخبر كان لا يوافق غرضها، ولا يشفى علتها ومرضها، لأنها كانت تحب قيساً وتميل إليه،

ولا يستقر خاطرها إلا عليه نظراً لما بينهما من المحبة القديمة، والصداقة القويمة، فأبت ولم تقبل، وفضلت حلول الأجل، وقالت: هذا أمر لا يتم أبداً، ولو مت قهراً وكمداً، فلما سمع كلامها وعلم ما في ضميرها ومرامها، تهددها الكلام فشتمها، ودار به الغيظ فلطمها. فاجتمع عليها الجيران والأهل والخلان، فلما رأت ما حل بها من الهوان، وأن موج البلايا أحاط بها من كل مكان، أجابت سؤاله بالكره والإجبار لا بالطوع والاختيار ثم ندمت على زواجها غاية الندم وجرى قلم القضاء بما حكم، وصارت محبتها له تكلفاً، ورؤيتها له تعسفاً، فكان لا يقر لها قرار ولا يطيب لها عيش لا بالليل ولا بالنهار. . . ، تتحدث هذه القصة عن مشاعر ليلى ولا تمر بها مروراً عابراً كما تفعل الكتب العربية. وتذكر بعد ذلك صدمة قيس من هذا الزواج وأنه خرج يطوف في الفلوات وقلل الجبال، واعتراه الشحوب والهزال. وتذكر أن رجلاً من بني بارق يقال له نوفل بن مساحق التقى به وهو على هذا الحال. وتتحدث عن هذا الموقف حديثاً مؤثراً، ولكنها تخالف الكتب العربية فتجعل اللقاء الأول بين قيس ونوفل قبل زواجها وأنه حاول أن يشفع له عند أبيها فلم ينجح. ولكن هذه القصة حين جعلت اللقاء الأول بينهما قد تم بعد زواجها كانت منطقية في أنها لم تجعل نوفلا يتشفع لقيس في امرأة متزوجة واكتفت بأن نوفلا حين رثى لحاله قال له: «أيها الحبيب والشاعر اللبيب إنه يعز علي ويعظم لدي أن أراك في هذا الحال،

تقاسي العذاب والنكال، فهل لك أن تسير معي إلى الديار وأنا أزوجك ببعض البنات الأبكار من هي أحلى وأحسن من ابنة عمك ليلى». فتركه قيس وانصرف. وتتحدث القصة عن الرسائل التي كان يتبادلها قيس وليلى. وهنا تطلعنا على نماذج رقيقة من الخطابات الغرامية المؤثرة التي يختلط فيها الشعر بالنثر. وكنت أود أن يتسع المقام لنقل نموذج لهذه الخطابات الغرامية ولكني سأكتفي بمطلع خطاب فقط «من قيس بن الملوح اهائم الوامق والحبيب الصادق، إلى سيدة الملاح وكوكب الصباح در الصدف وياقوت الشرف. من قد اتصفت بالمحاسن البهية والصفات العلية والآداب السنية ليلى العامرية، إنني بينما كنت متشوقاً إلى استماع أخبارك واكتشاف آثارك... إذ ورد لي عزيز رسالتك الموسومة بسماء المحبة الفائقة المسفرة عن ازدياد الصحبة الصادقة» وتظل القصة تتحدث عن عذاب ليلى وهيام قيس، وتسند إلى ليلى بعض مواقف أسندتها الكتب العربية إلى لبنى. كموقفها من الغربان الخمسة التي اشترتها وجعلت تضربها وتقطعها وهي تنشد الشعر، ولما لامها زوجها على هذا الأمر انفجرت فيه. وتتحدث القصة عن مشاعر الزوج واستيائه من موقف ليلى وشكواه إلى أبيها يحاول أن يطمئنه، وتتحدث عن موقف لقيس يقربه من أهل الكشف الذين يتنبئون بالغيب وذلك أن الزوج حين حذر قيساً من عبد الملك قال له قيس: «والله إنه منذ ثلاثة أيام، بينما كنت أطوف في بعض الآكام، زارني طائران وقالا لي: وحق الملك الديان، لقد قضى

الرحمن بالقضاء أيام عبد الملك بن مروان. ثم أطرق مليا وأتام مدة لا يتكلم شيئاً، ثم أمعن فيه النظر وأجال قداح الفكر. وقد أقسم بجامع الشتات ومخرج النبات أنها سوف تصلكم الأخبار أنه قد مات». وبالفعل تتحقق نبوءة قيس إذ يموت عبد الملك بعد ثلاثة أيام. ثم تنتهي هذه القصة فتجعل ليلى تموت قبل قيس وهي موفقة في هذا من الناحية الأدبية، إذ أن موت ليلى قبله قد زاد من فظاعة المأساة وأتاح للقصة خاتمة مؤثرة، إذ أن قيساً «أظهر الاكتئاب واستعظم المصاب واتخذته الرعدة والاضطراب، وكان يأوي إلى قبر ليلى ويدور بالنهار وهو يرثيها بالأشعار» حتى انتهى به الأمر «إلى واد كثير الحجارة وإذا به ميت معلق بين حجرين وقد كان خط بأصبعه عند رأسه هذين البيتين...». واحتمله القوم وغسلوه وكفنوه وإلى جانب ليلى دفنوه، وكان ذلك في سنة الثمانين من الهجرة المحمدية الموافقة سبعمائة مسيحية».

وأنتقل إلى قصة شعبية أخرى وهي سيرة الأميرة ذات الهمة فأختار منها بعض قصص العشق التي جعلت مسرحها في العصر الأموي، فأرى كيف يكون الثناء في هذه القصص والثراء والتشابك والانتقال من حكاية إلى حكاية والمفاجآت وحسن الوصف ومحاولة التأثير على القارئ وجذبه.. إلخ.

فحين تقرأ في الكتب العربية القديمة تجد أنها تذكر أخبار العشاق متناثرة متقطعة، كل موقف - في الأعم الأغلب - ينفصل عن

الموقف الآخر ليس هناك رباط واحد يربطها، وإنما هى أخبار متقطعة تختلط فيها الحقيقة بالخيال فمثلا خبر يتحدث عن تبشير كاهن هند بأنها سوف تلد مولوداً عظيم الشأن وخبر يتحدث عن امرأة فى ثياب رجل، وخبر يتحدث عن محاولة اغتصاب خلفاء أمويين لحرم غيرهم كما فعل يزيد مع امرأة عامر أو مع عمارة جارية عبد الله بن جعفر. وخبر يتحدث عن إطلاق قيس للظباء. وخبر أو أخبار تتحدث عن ابن أبى ربيعة وفاطمة بنت عبد الملك حين حجت. وخبر يتحدث عن غرام قيس بلبنى الكعبية من النظرة الأولى حين التقى بها فى يوم حار فاستقاها فسقته ومهدت له الوطاء وجاء أبوها فأكرمه. وخبر يتحدث عن عروة وموقف عمه منه، وخبر يتحدث عن دور الوشاة... إلخ.

ولكن سيرة الأمير ذات الهمة لا تذكر هذه الأخبار متناثرة، بل تضمها فى سيرة شعبية طويلة وتملأ الفجوات بينها وتجعل الأخبار يخدم بعضها بعضاً.

تزوج الحارث من رباب بعد أن هام بها حبا، «ثم رأت فى منامها ولذيذ أحلامها كأنها فى صحراء من الصحراوات، وحولها فسيح البرارى المقفرات.. وخرج من تحتها نار متأججة ولها ألوان متوهجة»، ثم أحرقت جميع ما على الأرض وبعد ذلك استدارت واستنارت، فتلجأ إلى كاهن فيبشرها بمولود له شأن وأن والدته سوف تموت حين يخرج إلى الدنيا. ثم يموت الحارث فتلحق رباب بقومها

وتستصحب معها فى الطريق غلاما لها فيراودها عن نفسها فتأبى فيدور بينهما صراع كان من شدته أن «دفق عليها الدم ولحقها الطلق بإذن خالق الخلق». فيثور العبد ويضربها بالحسام ويتركها مجندلة فى البرية وبجوارها ذلك الرضيع، وتسوق الأقدار أميرًا يقال له دارم فيدفن المرأة ويحمل الطفل ليتبناه ويسميه «جندبة». فيشب الطفل ويشتهر بالشجاعة والبأس، وفى يوم تقوم معركة بين الأمير دارم وامرأة يقال لها الشمطاء فتأسره وتأسر أولاده فيهب جندبة لنجدتهم وينقذهم من الأسر ويشيع ذلك الخبر ويشتهر أمر جندبة فيأكل الحسد قلب دارم ويعزم على إخراج جندبة من بينهم. فخرج جندبة حتى لاح له خباء مضروب فقصده فخرج له منه «إنسان تام الطول كأنه فحل من الفحول، فتأمله جندبة على ذلك الطول فإذا هو شاب أجرد أمرد عليه درع من الزرد وهو مضاعف العدد». ويدور بينهما قتال ينتصر فيه جندبة ويكشف الفارس عن نفسه فإذا هو فتاة تسمى «قتالة الشجعان» كانت قد حلفت ألا تتزوج إلا صنديدًا يقهرها، فرضيت بجندبة زوجاً ثم تصادف أن استخلص جندبة رحل الخليفة من أيدى غاصبين، وحمل ذلك الرحل إلى الخليفة بالشام ومعه زوجه «قتالة الشجعان» التى ما إن يراها هشام بن عبد الملك حتى يقع فى حبها ويرسل إليها دايته فتغضب قتالة ويغضب زوجها ويخرجان من دمشق «إلا أنه (ياسادة) ما سار عن دمشق قدر ميل أو فرسخ طويل ولم يشعروا إلا وقد خرج عليهم كمين وهو قدر خمسمائة فارس وهشام فى

مقدمتهم » فيغتصبون قتالة ويسيرون بها نحو الشام ولا يستطيع جندبة أن يطاول يد الخلافة فيسلى بزوجة جديدة عن قتالة التى امتنعت عن هشام حتى اغتاظ منها فقتلها. ويعلو شأن جندبة ثم يلحقه الموت ويترك زوجه حاملا التى تلجأ إلى عطاف أخى جندبة، وكانت زوج عطاف حاملا أيضا فتضع بتأ سموها ليلى « بوجه مثل القمر الوضاح لو بدت فى الليل المظلم لصار صباح، كأنها تبتسم عن ثغر منظوم، قد سرقت قدها من قضيب واستوهبت ردفها من كثيب... إلخ ». وفى اليوم نفسه تضع زوجة جندبة ولداً سموه الضحضاح « بوجه صبيح وقد مليح ولسان فصيح، تبان النجابة من عينيه والشجاعة من كفيه... إلخ ». وهنا تبدأ السيرة فتتحدث عن قصة غرامية بطلاها « ليلى والضحضاح ». تتشابه هذه القصة فى أولها مع قصص العشاق العذريين فقد أحب الضحضاح ابنة عمه وأحبته وأنشد فيها الأشعار، فلما شاعت وقف عمه عطاف فى وجهه ومنعه من رؤية ليلى فزاد ما به، وازداد النصح واللوم له. ثم اعتزل وأمه المضارب، وكانت ليلى تبكى وترسل إلى الضحضاح تبثه الغرام وتنشد فيه الأشعار ولكن الضحضاح لا يكتفى بهذا الموقف السلبى فيخطو خطوة إيجابية فقد « خلا فى بعض الأيام بنفسه وقال: مالى أرى جسدى يذوب ذوب الرصاص، فلا لا أسرع إلى الخلاص من ضيق الأنفاس، فإلى متى أكون فى موضع لا أقدر فيه على ليلى ولا أنظر إليها، وأنا ما فى عيب إلا فقرى، ومالى ألا أخرج عن أرض

بنى كلاب وأتغرب، فإن مقامى عندهم سواء، فإن غيابى وحضورى سواء وما لى لا أهج فى البرارى والقفار». ويعزم الصحصاح على الإغارة على القبائل ويكتب له النجلح ويسوق الغنائم ويشتهر أمره. فيأكل الحسد قلب عمه. ويخشى من منافسة الصحصاح على رياسة القبيلة، فيدبر المؤامرات الكثيرة لقتله، والصحصاح - تعاونه ليلى - يتغلب على كل المؤامرات ولكنه لا يحقد على عمه لأنه يحب ليلى، بل أنقذ فى إحدى المرات عمه من مخالب الأسد، فتنزل المحبة بدل العداوة فى قلب العم، ويوافق على زواج الصحصاح من ليلى، ولكن الصحيصاح يعزم على أن يسوق الكثير من الأموال مهراً لليلى، فيخرج فى طلب ذلك المهر ومعه عبده نجاح يقطعان الروابى والبطاح، حتى وصلا إلى واد كثير الغدران وإذا «بصياح عال، وسيوف مجذبة بأيدى رجال، وقد قبضوا على شاب ظاهر الجمال، وقد ظهرت جارية مليحة القوام، وفى يدها سيف أبتر وهى تقول: وحق الركن والحجر، لئن لم تطلقوا ابن عمى لأحطن هذا السيف فى بطنى وأخرجه من ظهرى». ويستطلع الصحصاح الخبر وإذا بقصة حب طريفة بطلاها «لبنى وغانم» فقد نشأ غانم مع لبنى ابنة عمه فأحبها وأحبته وكان يعرف أنها له لأن أباه قبل أن يموت أوصى عمه بذلك وترك له المهر. ولكن العم كان شريراً فاستولى على المال وأخذ يعد غانماً الوعود حتى طلب غانم من عمه أن يبر بوعده فقال له: «ياولدى حتى تغنم لنا غنيمة» وهو يريد أن يخرج غانماً إلى الغارات

حتى يلقى حتفه فيزوج ابنته لبعض الملوك وخرج غانم وأخذ يغير على القبائل حتى غنم الكثير وعاد محملا بالمال، ولكنه فوجئ بأن عمه قد زوج فى غيابه لبنى لملك حضرموت بعد أن أخبر ابنته ان غانما قد قتل فى إحدى الغارات ويرتاع غانم لهذه الأخبار ولكنه يعزم على أمر فيتنكر فى ثياب راع ويدخل على لبنى خيمتها فتشب إليه فيعتنقان وتعرض عليه فكرة الهرب فيحملها خلفه على فرسه. ولكن القوم ينتبهون فيحيطون بغانم، ويدور قتال يتكاثرون فيه على غانم ويأسرونه، ولما عرف الصحصاح سر هذا الصياح هب لنجدة عاشق مثله فتقلد سيفه وقتل الزوج والعم، ثم زوج غانماً من لبنى ثم سار فى طريقه حتى سمع أيضاً صياح نسوة وإذا بقطاع طرق يهجمون على حجاج بيت الله الحرام فيسارع الصحصاح لإنقاذهم لأنه كما يقول عن نفسه «ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف» ويتبين له أنه أنقذ مروة بنت عبد الملك التى تخلفت عن الركب مخافة من شاعر يقال له عمر بن أبى ربيعة المخزومى كان يتعرض للنساء ويصف محاسنهن وتعزم عليه أن يسير معها إلى دمشق لينال جائزته، ويتلقاه أهل دمشق بالحفاوة والترحيب. ومن الطريف أنه فى غمرة هذه الأحداث لم تغب ليلى عن باله، فحين يفتح له الخليفة باب التمنى يقول «ما أتمنى إلا مهر ليلى» وحين طلب منه مسلمة بن عبدالملك أن يتمنى على أبيه أن يعطيه ملك العرب يرد على مسلمة: «يامولاى ومهر ليلى أين يكون». ويجعله الخليفة ملكًا على العرب

ويجعل مشيره ابنه مسلمة، ثم يحمله الاشتياق على العودة إلى ليلى، وفى طريقه يمر بمضارب الخريث بن الخجاج وإذا به يفاجأ أن ليلى فى هذه المضارب تنتظر أن تزف إلى الخريث، وأن غانما صديقه أسير عند الخريث ويتكشف له الأمر ويعرف أن الخريث فى غيابه قد أغار على قومه فلما رأى ليلى هويها فخطبها من أبيها فوافق، ثم سار بها إلى محلته. وفى طريقه مر على ابن خالته غانم ولما علم غانم أمر ليلى صاحبة صديقه الصحصاح الذى اصطنع معه ومع ابنى معروفا طلب من الخريث أن يرد ليلى إلى قومها فأجابه: «يابن الخالة إن أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع وليلى الكلابية مثل ليلى العامرية وقد أصبحت أنا فى هواها مثل قيس بن الملوح من بلواها، والوصال إليها أصلح ومن وصل إليها فقد أفلح، فأعرض عن هذا النصح ولا تنصح...» ثم يسوء الأمر بينهما ويدور قتال ينتصر فيه الخريث ويأسر غانماً ويأخذ ليلى. ولما علم الصحصاح بهذه الأخبار قاتل الخريث وانتصر عليه واستخرج غانماً واستخلص لبلاه. ومازال شأن الصحصاح يعلو فيستدعيه الخليفة لحرب الروم. فيسير إلى بلاد الروم ومعه مسلمة. وفى بلاد الروم أتى إلى جانب النهر، فرأى عشر جوار مهد أبكار كأنهن الأقمار.. وكانت بينهن جارية مليحة القوام حلوة الابتسام.. وهى تقول للجوارى: تقدمن حتى أتصارع أنا وإياكن قبل أن يغيب البدر» وكانت تنتصر على كل جارية ثم دخل الصحصاح معها فى صراع انتصرت عليه، ثم يتبين له ان هذه الجارية الرومية

هى الملكة ألوف وتأخذه معها إلى قلعتها وتسمعه من الغناء ما يدهشه. ويعود فيخبر مسلمة بذلك، فيتوله بها مسلمة على السماع وينتهى الأمر بإسلام الملكة ألوف وزواجها من مسلمة. وتمضى السيرة فتتحدث عن قصة حب أخرى للصحصاح، فقد خرج ذات يوم للصيد فتبع ظبية جميلة ولحقها بقرب حلة من حلل العرب، ثم خرجت من تلك الحلة فتاة «لم ير الصحصاح مثلها ولا فى بنات الروم شكلها». فتوله بها ودعته الجارية للنزول فأجاب وبسطت له بساطاً ثم حضر أبوها فبالغ فى إكرام الصحصاح ولما طلبها منه أجاب فتزوجها ومكث عندهم مدة ركبت ليلى فيها الهواجس لغياب زوجها، ثم عاد إلى ليلى فأخبرها أنه كان فى ضيافة بعض العرب. وظل على علاقته مع أمامة يرسل إليها الهدايا ويذهب إليها دون أن تعلم ليلى، حتى وضعت له أمامة ولداً أسمته «مظلوماً» فى اليوم الذى وضعت فيه ليلى ولداً أسمته «ظالماً». ولكن رجلا يقال له عامر كان يهوى أمامة ويطمع فى أن يتزوجها فخيب الصحصاح آماله فانتهز هذا الرجل فرصة وجود الصحصاح عند امامة فجاء إلى ليلى فأخبرها بكل شىء، وفى أثناء عودة الصحصاح من عند أمامة علم بما فعله عامر فخجل أن يرجع إلى ليلى وعزم على أن يقصد إلى الأمير غانم. وهنا تبدأ السيرة فتحدثنا عن قصة التقائه فى طريقه بجنية تمثلت له فى صورة «جارية حسنة القوام، مليحة الابتسام» فيحبها الصحصاح ويلاقى فى ذلك الصعاب الجمة فقد كانت الجنية تحب بنتاً مثلها من

الإنس، فى الوقت الذى يحب فيه هذه الجنية ابن عمها الذى لا تحبه لأنه ينكح بنات الإنس واستطاع الصحصاح أن يتغلب على كثير من العقبات وأن يتزوج الجنية «ست الغزلان»... إلخ.

وهكذا تسلمنا السيرة من قصة إلى قصة، وكل قصة تتشابك مع الأخرى، فتتشابك مع حكايات عن المكر، والشجاعة، والجن والاحتيال. وهذه السيرة تخلصت من النظرة التاريخية وأصبح هدفها جذب القارئ والتأثير عليه، بل لا تجد حرجاً فى مخالفة التاريخ فى أشياء معروفة ومشهورة فمثلا تجعل عمر بن أبى ربيعة شاعرا من أهل الشام، وتتحدث عن علاقة طيبة بين عبدالله بن الزبير أمير مكة وبين الخليفة عبد الملك بن مروان مع أن التاريخ يفيض فى الحروب التى دارت بينهما والتى انتهت بقتل ابن الزبير. ومن الدلائل على أن السيرة تبغى التأثير على القارئ وتؤثر الأسلوب القصصى - استغلالها لعنصر الطبيعة فى تهيئة الجو وخلق مجال يؤثر على القارئ، فهى تكثر فى مواقفها من وصف الطبيعة التى تحيط بالعاشقين وصفاً ينمى الموقف ويبرزه، وإن كانت فى بعض هذه الأوصاف تخرج عن المعهود فى البيئة العربية والطبيعة الصحراوية. واقرأ مثلا هذه اللقطة التى تمهد فيها للحب بين ليلى والصحصاح وانظر كيف تستخدم مظاهر الطبيعة استخداماً مؤثراً، وفى الوقت نفسه نلاحظ أن هذه الأوصاف بعيدة عن بيئة القبائل العربية.. «وخرجت ليلى فى بعض الأيام مع أترابها للغدير، تتفرج على الزهر المنير، وحولها جميع جوارها والبهاء

والحسن قد حازها. وكان من الاتفاق أن الصحصاح خرج يتفرج على الربيع والأرض قد اكتست حلتها الخضراء، وقد فاضت روائح أزهارها، وهى أزكى من عطر عطارها كما قال فيها:

محاجرها بيض وأحداقها صفر وأجسامها خضر وأنفاسها عطر

(قال الراوى): هذا والشقائق كالزنوج وقد حاربت فسالت دماها وهى تلمع باحمرارها والأقحوان فى وسطها والنرجسان كأنه أذناب الطواويس فى بسطها والأرض قد فرشت بأنواع الملابس، فجعل الصحصاح يتفرج على الغدير وينظر إلى ليلى وهى كأنها القمر المنير فهاج جنانه ونطق لسانه...»

وتتشابه بعض هذه القصص فى بدايتها ببعض القصص العذرية. فقصة «ليلى والصحصاح» تشبه فى مبدأ أمرها قصة «ليلى وقيس». ولكن الصحصاح يتطور بشخصيته فيجعل من حبه دافعاً لأن يتغلب على واقعه ويعلو على فقره فيسير فى البلاد طالباً الغنى والثراء، يدفعه الحب إلى إتيان المعجزات وإلى الوصول إلى المجد بل يصل به الأمر إلى حب الفضائل أو كما يقول «ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف» كما يحدث للصوفى الذى ينتقل من حب المعشوقة إلى حب الذات الإلهية.

وقصة «أمامة والصحصاح» تشبه قصة «لبنى وقيس» فى بدايتها فقد خرج الصحصاح يوماً إلى الصحراء ثم يصل إلى خيام بنى الوحيد ويقع نظره على أمامة فيتوله بها، وتتوله به وتكرمه، ويأتى

أبوها فيكرمه أيضاً، ولكن القصة لا تقف عند هذا الحد، فهناك عاشق آخر لأمامة يحقد على الصحصاح فيشي به إلى ليلى. وهنا تتشابك هذه القصة مع قصة «ليلى والصحصاح» ويستمر هذا التشابك فقد أنجبت أمامة «مظلوماً» وأنجبت ليلى «ظالما». وتتحدث السيرة بعد ذلك عن الصراع بين «مظلوم» و «ظالم» الذي يحاول فيه المظلوم تثبيت حقه.. إلخ.

وتذكرنا هذه القصة بقصة «مضاض ومى» التي ذكرها صاحب النيجان على أنها حدثت أيام العرب البائدة، فقد أحب مضاض ميا، وباركت الأسرتان هذا الحب، وانتظرا تحديد يوم ليبنى بها، ولكن يظهر في الجو رجل يحب ميا ولا تحبه، فيغبطه هذا الحب الذي سيتوج بالزواج، فيشي إلى مى ويخبرها أن مضاضاً يحب أخرى ثم ينشدها من الأشعار التي ينسبها إلى مضاض يبث فيها حبه للحبيبة الأخرى، فتغتاظ مى وتغير أباها بذلك الذي تأخذه العزة والأنفة فيفسخ خطبة مضاض ويترك لمضاض وأسرته الديار ويهاجر، ولما سمع مضاض بالقصة تبعهم، واستعطف ميا وأنشد فيها الأشعار، ولكنها لا تأبه له ولا لأشعاره، فيموت مضاض في الصحراء عطشاً. وحين يبلغ الخبر ميا تحرم على نفسها الماء وتعزم على اللحاق بحبيبها، وتوصي أن تدفن بجانبه في المكان المسمى «موطن الموت».

وتتشابه قصة «ليلى وغانم» مع قصة «عفراء وعروة»، في بدايتها فغانم مثل عروة ينشأ مع ابنة عمه، فيحبها وتحبه، ويعده عمه

بالزواج، ثم يخرج - تحقيقاً لرغبة عمه - للغنيمة وكسب الأموال، وينتهز العم غيابه فيزوج ابنته من رجل ثرى. ولكن القصة هنا تتطور أكثر، فقد حضر غانم قبل أن تزف «لبنى»، وتنكر حتى اختطفها وحملها على فرسه، ولكن القوم ينتبهون له ويقبضون عليه. وهنا يتشابك أمر غانم مع أمر الصحصاح، إذ يهب الصحصاح لمعاونة هذاالعاشق، ولا يكون موقف التعاون بين هذين العاشقين، موقفاً صغيراً فقيراً، كهذا الموقف الذى نقرؤه عن التعاون بين القيسين، أو التعاون بين جميل وكثير، بل إن الموقف فى هذه السيرة يزيدها ثراء ونماء، فقد زرع المحبة بين هذين العاشقين وجعل منهما قوة واحدة متآزرة، فحين يرى غانم ليل عند الحريث يحاول خلاصها وتدخل من أجل ذلك فى قتال ينتهى بأسره ولا ينقذه من الأسر إلا صديقه الصحصاح.

ومن الطريف أن تقارن بين الحكايات الحسية التى كان بطلها ابن أبى ربيعة وبين تلك الحكاية مثلا التى ذكرتها السيرة عن الصحصاح والأمير مسلمة بن عبد الملك من جانب، وبين الملكة ألوف من جانب آخر، فإن القصة الأخيرة تتوسع فى شرح الجو، وفى حسن الوصف، وفى التشابك مع الأحداث الأخرى، وفى تأثير هذه العلاقة على الحروب التى دارت بين العرب والروم. وفى التعبير عن نظرة العرب إلى بنات الروم إلخ...

وإن أردنا مثالا صغيراً نقارن فيه صنيع الكتب العربية القديمة

وصنيع السير الشعبية، فإنى أذكر موقفاً متشابها وهو موقف العاشق من الظباء، فإن الكتب تكتفى بذكر أن قيساً كان يتعاطف مع الظباء لأنها شبيهة بليلى وأنه كان يطلقها من شراكها. ولكن هذه السيرة تتوسع فى هذا وتصفه وصفاً يثير الشوق والانتباه وتتحدث عن مواقف جذابة للصحصاح مع الغزلان فى قصته مع ليلى، ومع أمامة، ومع ست الغزلان.

(ب) وتتطور هذه القصص أكثر وأكثر حين تنتقل إلى **الأدب الفارسى والأدب التركى**، إذ ألف الأدباء بين شتيت الأخبار التى روتها الكتب العربية وأضافوا إليها أشياء من مبتكراتهم ولحموا بين ذلك، من أجل غاية واحدة تسيطر على جميع أحداث القصة، وأخرجوا قصصاً ذات طابع فلسفى وفكرى، وجعلوا الحب العذرى مرحلة مجازية إلى حب آخر أرقى وأبقى وهو الحب الإلهى.

وقد عقد الدكتور محمد غنيمى هلال فى كتابه القيم «الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية» - باباً عرض فيه أشهر النصوص الأدبية لكتاب الفرس وشعرائهم الذين ألفوا فى موضوع ليلى والمجنون مثل نظامى، وسعدى الشيرازى، وأمير خسر والدهلوى. وعبد الرحمن الجامى، وهاتفى.

ومن التجنى أن نطبق قواعد القصة الحديثة التى عرفت فى القرن التاسع عشر على هؤلاء الكتاب الذين عاشوا قبل أن تعرف هذه القواعد ولهذا لن نثور على ما نراه مخالفاً لهذه القواعد كتدخل

الكاتب فى أثناء القصة لبث أفكاره وفلسفته، أو التعقيب على فصول القصة بالشرح وبيان المغزى، أو حشر قصص أخرى فى سياق الكلام... إلخ.

ولكن لاشك فى أن هذه القصص أرقى بكثير من أخبار العذريين العرب، فهى وحدة متسقة مؤلفة لغرض، تحمل أفكاراً فلسفية ذات تيارات عالية، وشخصيات يصدرون عن موقف فلسفى ولهم نظرتهم الخاصة نحو العالم والمجتمعات والملوك والحكام.. إلخ. ولا غرو فقد كان مؤلفوها من خاصة الناس وممن تثقفوا ثقافة فلسفية رفيعة وتقلدوا مناصب راقية وممن وهبوا مشاعر خاصة.

وقصة عبد الرحمن الجامى (١٤١٤ - ١٤٩٢م) تعتبر خير القصص الفارسية فى هذا الموضوع وأكثرها ابتكاراً، وأعمقها فلسفة وأروعها تصويراً.

والقارئ لهذه القصة يجد تشابهاً إلى حد كبير بينها وبين ما روى من أخبار العشاق العذريين فى الأدب العربى.

فهيكل هذه القصة يتفق مع ما هو معروف عند العرب من أن شاباً حساساً من قبيلة بنى عامر ببلاد نجد يسمى «قيساً» عشق فتاة تسمى «ليلى» عشقاً عذريا ملك عليه كل حواسه، وعشقته، ثم خطبها من أبيها فرفض فاشتد به الوجد. ثم زوجت من شاب من بنى ثقيف فصعب الأمر على قيس وهام على وجهه فى القفار يتعاطف

مع الظباء وينشد الأشعار، وانتهت هذه القصة بوفاتها بسبب الحرمان والعشق.

وقد تأثر المؤلف بالأخبار التي روتها الكتب العربية تأثراً كبيراً. وكان جميلا من الدكتور محمد غنيمي هلال أن يذكر - في هوامش هذه القصة التي ترجمها عن الفارسية - الأخبار العربية التي تأثر بها المؤلف.

ولكن الجامي اختار من هذه الأخبار ما يخدم فنه القصصي وسبكها بطريقة مشوقة ووسع في مواقفها توسيعاً جذاباً. واقرأ موقفه مع صائد الظباء والكلام الذي وجهه لهذا الصائد حتى «ذاب شمع قلبه رقة فرمى بسيفه من يده».

وكان الجامي موفقاً في خلق الجو القصصي، ووصف الطبيعة والبيئة وصفاً رائعاً يخرج به أحياناً عن البيئة والطبيعة العربية، وكان يورد في قصته الخطابات المتبادلة بين قيس وليلى. ومن الطريف أن نقارن بين هذه الخطابات وبين الرسائل التي تضمنتها قصة قيس الشعبية كما جمعها مجهول والتي سبق أن أوردنا نموذجا لها، فإن الخطابات عند الجامي مفصلة عميقة تخدم الغاية، على حين تكتفي - عند الأديب الشعبي - بالشكوى من العاطفة، وهذا الفرق بين الرسائل كذلك الفرق الذي لابد أن يكون بين رجل كالجامي مثقف يهدف إلى غاية من قصته، وبين رجل من عامة الناس يهدف إلى التأثير على السامعين.

واقرأ بصفة خاصة الفصل الذى يتحدث عن وفاة ليلى فإنه مؤثر ورائع، وقد ربط المؤلف فيه بين مظاهر الطبيعة وبين نفسية ليلى وهى على فراش الموت «أقبل الخريف بريحه، فخلعت الأشجار على مهب ريحه ثيابها، وتعرت من خلعها الأخضر، وفارقها رونق الربيع وبهاء أوراقه كما أن العالم من الخريف مفوض الأركان، كانت ليلى - تلك الوردة ربيبة المروج - طريحة على الأشواك، أشواك الموت.. إلخ.» وجعلت ليلى تلقى بوصيتها إلى أمها بطريقة مؤثرة تثير الدموع «... وحين تشد الروح رحلها، مستمدين من أجلى بساط المأتم، فانظرى مقامى غريقة فى دم الأشجان، واغسلى جسمى من مسيل الأجفان، واجعلى كفنى من خلعة طهرى وعفتى، وليكن فى لون ياقوت دموعى، ولف به وجهى الأبيض، ففى ذلك دليل على أنى شهيدة الحب... ولست فى حاجة إلى عصابة على الرأس فاتركينى مرفوعة الرأس بالعشق... وانزليني من ضريحه الطاهر، وليكن مكانى فى حفرة دون قدميه... واجعلى رأسى تحت كف قدمه لتكون لرأسى تاجاً، وسأقيم على الوفاء له حتى الحشر، ويومذاك أنهض طيبة الخاطر من تراب قدميه».

وفوق هذا، فإن الجامى لم يقف عند حد الحب العذرى كما هو وارد فى الأخبار العربية، بل جعل هذا الحب مجازاً لحب أسمى هو الحب الإلهى «حذار أن تظن أن المجنون قد فتق بحسن المجاز. فعلى

الرغم من أنه قد صبا أولا لنيل جرعة من جام ليلى، فقد رمى آخراً بالجام من يده فتحطم... فتفتحت في بستان سره من أزهار المجاز أزهار الحقيقة...» وقد كانت هذه الغاية هي التي تسير أحداث القصة عند الجامي، وتجعلها تلون بعض شخصيات القصة، فقيس معد لهذا منذ البداية، لأنه «من عجنت طينته بالعشق وخطت على لوح قلبه كلمته، فلن تمحى تلك الكلمة من لوحه، ولو أمضى عمره في غسله منها ومحوه». وزوج ليلى وقع في حبها وعاش من أجلها ولم يجعله هذا الحب يحقد على قيس أو ليلى «ولم يجد بدا من العيش على حرقة الوجد واكتفى من تلك الحديقة بعطر زهرها... وقضى نحبه يوم أن قضى في ذلك الأسى، متخذاً منه زاداً لأخراه».

(ح) وفي الأدب العربي الحديث، دخلت هزة القصص إلى مجال الفن الخالص، ورواية ليلى والمجنون لأحمد شوقي تعتبر رائدة في هذا المجال.

وقد اعتمد في روايته تلك على الأخبار التي روتها الكتب العربية وبخاصة الأغاني، ولكنه ألف بين تلك الأخبار بطريقة فنية وأضاف إليها أشياء من عنده كمنظر الجن في الفصل الرابع، وخالف التاريخ في بعض الأحيان وذلك كإسناده دور الوساطة الفعلية إلى ابن عوف، والتاريخ يذكر أن ابن عوف هم بهذه الوساطة ولم يفعل، إنما الذي فعل ذلك هو نوفل بن مساحق، ثم خرج لنا بعد ذلك بمسرحية

فنية، فيها أدوار متعددة كدور الصديق الذى يقوم به زياد، ودور الغريم الذى يقوم به منازل، ودور المنافق الذى يقوم به نصيب. وفيها تحليل. وفيها قوة وغير ذلك من أمور تتطور بهذه القصة من مرحلة السذاجة والشعبية إلى مرحلة العمق والفن.

وقد وقف بمسرحيته عند حد الحب العذرى كما روت الكتب العربية، ولم يصنع صنيع شعراء الفرس والترك، فيتحدث عن حب آخر وهو الحب الصوفى، وإن كان شوقى يصف ليلى وصفاً فيه مثالية، ويظهرها بصورة فيها هيبة وجلال، استمع إلى حديث «ورد» الزوج إلى قيس يشرح له مأساته مع ليلى:

منذ حوت دارى لى ... لى ما خلوت من ندم
كانت إطافتى بها ... كالوثنى بالصنم
وربما جئت فرا ... شها فخانتنى القدم
كأنها لى محرم ... وليس بينا رحم

أو قوله:

فشعرك ياقيس أصل البلاء ... لقيت به وبليلى الضلالا
كساها جمالا فعلقتها ... فلما التقينا كساها جلالا
إذا جئتها لأنال الحقوق ... نهتنى قداستها أن أنالا

* * *

وخلاصة الفصل أن تطور قصص العشق كان ضئيلا، لأن

الراوى لم يكن على وعى بالعمل الذى لا ينبغى أن يختلط بالتاريخ اختلاطا يضيع شخصية كل منهما.

وإنما ظهر التطور بوضوح فى السير الشعبية، ثم بصورة أوضح عند شعراء الفرس والترك، ثم بصورة أكثر وضوحاً فى الأدب العربى الحديث.

obeikandl.com